الميلادُ والحرِّيَّةُ

عظة الأب البروفسور جورج حبيقة

رئيس جامعة الروح القدس الكسليك

في قداس منتصف الليل لعيد الميلاد المجيد

٢٥ كانون الأول ٢٠١٦

آبائي الأجلاء، إخوتي الحاضرين هنا في كنيسة جامعة الروح القدس الكسليك ومشاهدينا الأعزاء في لبنان ودنيا الاغتراب عبر شاشة المؤسسة اللبنانية للإرسال إنترنشيونال LBCI التي نُجزلها الشكر على النقل المباشر وإشراك المحطات اللبنانية الأخرى في إيصال احتفالاتنا بمجيء الرب إلى أصقاع العالم كافة.

المجدُ لله في العلى وعلى الأرض السلامُ والرجاءُ الصالح لبني البشر

ها إن ملاك الربّ يزفُّ لنا بشرى انتظرتها الأجيالُ في لاوعيها وأبى الإدراك العقلي أن ينجرف إلى التفكير بها، ألا وهي تلاقي السماء والأرض، تلاقي مجدِ العلى وسلام الأرض، انتهاءُ القطيعة بين مصدر الحياة والحياة، بين أصل الوجود والوجود، بين الخالق والمخلوق. الله الذي تصورته فلسفة أرسطو أسيرَ كماله، منغلقا على ذاته المطلقة، يفكّر أبدا بذاته، لا يهتمّ بالإنسان ولا يحرّك أحداث التاريخ،

خوفا من أن تتسلل بشكل أو بآخر نواقصُ البشرية وتعاستُها إلى جوهره الإلهي، فيفقد بهاء كماله ومطلقية سعادته. هذا الله نراه في تصور نقيض في مستهل الكتاب المقدس: لم يعد ذاك اللهَ اللاّمبالي، المتعالي، المترفّع، بل بان على حقيقته حبّا مطلقا متدفّقا خلقا ومعطي الوجود للإنسان ولكل شيء. همُّه أن يُسعد مبروآته وان يدفع بالتاريخ وأحداثه إلى ملء الاتحاد به. وفي الإنجيل، يصبح الله معنا، عمانوئيل، آخذا طبيعة الإنسان ليحوّلها إلى جوهره الإلهي. وهنا تظهر أقصى درجات اهتمام الله بالإنسان: كلمة الله، خالقة الكون والزمن، مسيرة التاريخ وفوق التاريخ، تدخل الزمن والتاريخ. كلمة الله اللامحدودة، يسوع المسيح، مالئ الوجود، يأخذ طبيعتنا الواهية، ويصبح له اسم بشري، ينتمي إلى عائلة حيث ولدته أم من دون أب، هو المولود في الأزل من أب بدون أم. إنه ينتمي إلى وطن، إلى أمّة، إلى حضارة، إلى أرضٍ ملتقى جميع الحضارات والثقافات لكي ينطلق من هذه الانتماءات الوجودية الأساسية ويلتصق كيانيا بكل إنسان قديما وحاضرا ومستقبلا. هو الخالد يخضع إلى شريعة النمو والتغيير والموت. إنها لحقائق يصعب فهمها على نور عقلنا الذي شوهته مغامرة الحرية وقلبت مقاييسه. بيد أن هذا التناقض الظاهر في سر تجسّد كلمة الله الذي يعاكس منطقنا الأرضي، إنما هو العلاج الوحيد لإعادة التوازن إلى ما اختلّ في طبيعتنا وحسبناه مَرجعا وقاعدة ومعيارا، ولإعادة السكينة الإلهية إلى الفوضى الكِيانية التي فجَّرتها مغامرة الإنسان الفاشلة في تحقيق ذاته خارج مصدرها ومسبِّب وجودها.

في أولى صفحات سفر التكوين في الكتاب المقدس، في الفصل الأول الآية ٢٦، يطالعنا مشهد خلق الله للإنسان، وكيف أن الله، الروحَ الصِّرف، الحياةَ المطلقة والحبَّ المطلق والعطاءَ المطلق والحريةَ المطلقة، ترك بصماتِه في كيان الإنسان وأتى على صورته ومثاله. ولما كان الله لا يستطيع أن يُخرج إلى الوجود إلها آخرا، جاء الإنسان يتميز بشكل ناقص بالصفات الإلهية الكاملة: حياة محدودة، حبّ محدود، إبداع محدود وحرية محدودة. الإنسان الحرّ أراد أن يحقّق ذاته بعيدا عن الله. وهذا حقٌّ له، إذ إن الله خلق أبناءً أحرارا، وليس عبيدا يسخِّرهم لتبجيله رغما عنهم، ويُكرههم على البقاء بقربه. فركب الإنسان شراع حريته وغامر بعيدا عن مصدر حياته. فكانت الحصيلة التي نعرفها ونعيشها في كِياننا: آدم الحر والمغامر يقف عريانا أمام فراغ ذاته. يختبر للمرّة الأولى شعورَ الخجل. يرتعد من سؤال الله له: أين أنت؟ جواب آدم، الذي يمثّل كلَّ واحد منا، كان أبلغ تعبير عن مدى الفوضى والخضّة الكِيانيَّة التي أحدثتها مغامرتُه

التّعيسة: آدم يتّهم امرأته وحواء تلقي بالمسؤولية على غيرها. وهكذا نرى أن انعدامَ الثقة والمحاذرةَ والخوفَ من قرارات الآخر ومحاولةَ تبرير الذات واتهامَ الآخرِ بافتعال المأساة، جميعُ هذه المعطيات السلبية باتت تتحكم في علاقة الإنسان مع ذاته ومع أخيه الإنسان ومع الكون.

هذه المأساةُ الكبيرة التي حلت بالإنسان وغيرت كِيانَه وقلبت مقوماتِ الوجود رأسا على عقب، دعتها الكنيسة الخطيئة الأصلية أي التزعزع في أصل الوجود الحسي. فتأمُّل الفيلسوف واللاهوتي وعالم الرياضيات والفيزياء الفرنسي الشهير بسكال في طبيعة الإنسان والوجود ذهب به إلى الاعتراف بأنه لولا هذا المفهومُ أي الخطيئةُ الأصلية لما أدرك سرَّ الفوضى والتضعضعِ في حياة الإنسان والكون. باستطاعتنا أن ندعو هذا الواقع بالاسم الذي نشاء. ولكن ليس بمقدورنا أن نُنكر أن حياتَنا طافحةٌ بالأمور التي تعاكس مرادنا وتقضُّ أبدا مضجعنا، ابتداء بخيبات الأمل والحزن والكآبة والمرض والألم ومرورا بالحروب وويلات الطبيعة ووصولا إلى استحقاق الموت. نستصرخ ذواتِنا، نستصرخ الكون: من يخلِّصنا من جسد الهوان والموت هذا؟ من يُنقذنا من حرّيّتنا المستعبِدة؟ من صراخ هابيلَ المنازع بين يدي أخيه قاين إلى صراخنا وأنّاتنا وآخاتنا نحن هنا في لبنان، في هذا المشرق المفطور على فنِّ المراثي والانتحاب، فصولٌ متنوعة لمأساة الإنسان الواحدة.

وإذا بملاك الرب ينتصب في ملء الأزمنة لينادِيَنا نحن أبناءَ وادي الدموع: لا تخافوا، فها أنذا أبشركم بفرح عظيم، يكون لجميع الشعوب، إنه قد ولد لكم مخلِّص وهو المسيح، كلمةُ الله، في مدينة داود. فإذا كان الكائن البشري لم يستطع أن يحافظ على بصمات الله في كِيانه وشوَّهها وأفقدها بريقَها الأول، كان على الله أن يرسل كلمتَه، يسوعَ المسيح، ليرمِّم ما تخلخل وتداعى في طبيعة الإنسان وعقله وضميره وروحه.

في المدلولات الكثيرة التي يزخَرُ بها سرُّ ميلاد المسيح، يستوقفنا مُعطىً كان أساسا وقاعدةَ انطلاق لجميع المراحل التي رسمها الله في مخطَّطِه الخلاصي للإنسان، ألا وهي الحرّيّة. كان الله يعرف ملء المعرفة إلى أين سيصلُ الإنسان في مغامرة تحقيق الذات خارجَ ذات الله. بدل أن يقمعَه بقوة ويردعَه عن صنيعه من أجل خيره، تركه مع حريته كحقٍّ له لا يُنزعُ منه ولا يُغتصب. وعِوض أن يُهلكَ الإنسان إلى الأبد، وعده بالخلاص وأرسل إليه مسيحَه، ليشاركَه غربتَه ويعملَ على إرجاعه إلى الإقامة في مساحات الروح

الإلهي بملء إرادته. وكما يقول القديس أوغسطينوس إذا كان الله قد خلق الإنسان بدون موافقته، فهو بالتالي لا يستطيع أن يخلِّصَه بدون موافقته. إن حرصَ اللهِ على حرية الإنسان واحترامَه غيرَ المنقوصِ لها إنما هو أمرٌ عظيمٌ للغاية علينا أن نستشفَّ منه مبادئ أساسية لكامل سلوكياتنا ومفاهيمنا في المنظومة العلائقية مع الآخرين.

في لبنانَ، وطنِنا الحبيب، المصلوبِ على خشبة الشرق المتخبط في منطق اختزال الآخر المختلف وتهميشه وإلغائه، والغارق في ظلام الدكتاتوريات والعصبيات الشرسة والهوِّيَّات القاتلة والحركات الدينية المنحرفة والمشوِّهة لمفهوم حضور الله في مدينة البشر، يكتسي عيدُ الميلاد طابعا خاصا. عيدُ الميلاد إنما هو نداءٌ صارخ إلى ضمير الإنسان في هذا المشرق لكي يحترم حقَّ أخيه الإنسان في حياة حرّة وشريفة وكريمة كما اللهُ نفسُه يحترمُها ويقدِّسها. عيدُ الميلاد هو عيد تحرير الإنسان من ذاته المستعبَدة. عيد الميلاد هو وقفةٌ جريئة أمام الذات لمحاسبتها على مدى الأمانة في حفاظها على وديعة الله المغروسة في كياننا: أحبب قريبَك كنفسك. فهل من حبّ أعظمُ من حبّ المسيح الذي أخلى ذاته وملأها من تعاسة طبيعتنا البشرية ودشَّن إقامتَه بيننا بولادته في مذودٍ حقير لكي لا يدع فقيرا أو مشرَّدا يتحدّاه في البؤس والحرمان والتشرّد والاضطهاد، ليُميت جميع هذه العاهات على صليب فدائه ويدفع بالإنسانية إلى ولادة جديدة؟

إذا كان الذين لا يؤمنون برسالة المسيح المبنيّة على قبول الآخر كجزء من الذات وطريق إلى الذات، وعلى المحبة الشاملة والغفران الدائم والسعي الدؤوب إلى إسعاد الآخر قبل الذات، يلتجئون إلى جميع وسائل العنف لإرساء نظرتهم ومخططاتهم التي تصوغُها حكرا شهوةُ السلطة والنفوذ والاستبداد على حساب حرية الآخرين وتطلعاتهم المحقة وطموحاتهم العادلة، فلا يسعنا، نحن الذين لبسنا المسيح الربَّ في المعمودية، أو الذين نكرِّم السيّد المسيح ككلمة من روح الله لهدي البشر، أن نعود إلى آدم العتيق، إلى عهد قاين، نقتل إخوتنا متوهمين أننا بذلك نحافظ على حياتنا وحريتنا. فالعنفُ، سواءٌ كان إيديولوجيا أم دينيا، إنما هو هزيمةٌ نكراء لإنسانيتنا. ما من حرية واستمرارية في الوجود تُبنيان على حطام حرية الآخرين وحياتهم.

إن الأمثلةَ التي تشهدُها أيامُنا الحاضرة خير رسالة يبعثها التاريخ لأولئك الذين يتمادون في وهمهم أن العنف والقهر يصلحان لإرساء مجتمع هادئ ومتماسك وموحَّد. فكما أن السيد المسيح حمل إلينا

مشروعَه الخلاصي بالحرية، وحاول إعتاقَنا من اختبار الغربة الوجودية بالحرّيّة، وسعى إلى إعادة ربطنا بمصدر حياتنا بالحرية، واقترح علينا خريطةَ طريق إلى السعادة الحقَّة والمستدامة بالحرية، هكذا علينا أن نتماثل به إذا أردنا أن نبني وطنا للإنسان وحريته وكرامته وفرحه، يكون مساحةً حقيقية للِّقاء بالله المحبة والرحمة والغفران والمصالحة. إن عيدَ الميلاد إنما هو ترحالٌ من مدينة البشر المشيّدة على منطق الصراع والكراهية والقهر والإقصاء والتهميش والإلغاء إلى مدينة بيتَ لحم، مدينةِ التلاقي في الحرية والوداعة والسلم والحب والحنان. عيدُ الميلاد هو عيدُ السماءِ في استضافة الأرض. إنه زرعُ مواسم الفرح على إيقاع الزمن الآتي.

وختاما، باسم قدس الأباتي نعمة الله الهاشم السامي الاحترام، الرئيس العام للرهبانية اللبنانية المارونية والرئيس الأعلى للجامعة ومجمع الرئاسة العامة ومجلس جامعة الروح القدس الكسليك، يطيب لي أن أتمنى لكم جميعا: يَلدو شْبيحو، ميلادا مجيدا، Joyeux Noël، Merry Christmas، Frohe Weihnachten، Buon Natale، Feliz Navidad، Feliz Natal، آمين.